من خير الدنيا والآخرة. قال الله تعالى ﴿**واستَعينوا بالصَّبر والصلاة. وإنها لكبيرة إلا على الخاشِعين**﴾(1).

فهـذه الثلاثـة أشياء: بهـا يدرك التصـوف، والتصـوف: زاويـة من زوايـا السلوك الحقيقي، وتزكية النفس وتهذيبها. لتستعد لسيرها إلى صحبة الـرفيق الأعلى، ومعيـة من تحبه. فإن المرء مع من أحب. كما قال سمنـون: ذهب المحبون بشرف الـدنيا والآخـرة. فإن المرء مع من أحب. والله أعلم.

فصل

قال: «**وهو عـلى ثلاث درجـات. الدَّرجـة الأولى: أن تعرف مَقـام الخلق. وأنهم بأقدارهم مَـرْبوطـون. وفي طاقتهم محبُـوسون. وعـلى الحُكْم موقـوفون. فتستفيـد بهذه المعرفة ثـلاثة أشيـاء: أَمْن الخلق مِنك، حتى الكلب. ومحبـة الخلق إياك، ونجـاة الخلق بك**»(2).

فبهذه الدرجة: يكون تحسين الخُلُق مع الخلق في معاملتهم، وكيفية مصاحبتهم.
وبالثانية: تحسين الخلق مع الله في معاملته.
وبالثالثة: درجة الفناء على قاعدته وأصله.

يقـول: إذا عرفت مقـام الخلق، ومقاديـرهم، وجريـان الأحكام القَـدَرية عليهم، وأنهم مقيـدون بالقـدر، لا خروج لهم عنـه البتة، ومحبـوسـون في قـدرتهم وطـاقتهم. لا يمكنهم تجـاوزها إلى غيـرهـا، وأنهم مـوقـوفـون على الحكم الكـوني القـدري لا يتعدونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء:

أَمْن الخلق منـك. وذلـك: أنـه إذا نـظر إليهم بعـين الحقيقـة. لم يـطالبهم بمـا لا يقدرون عليه. وامتثل فيهم أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بأخذ العفـو منهم. فأمنـوا من تكليفه إياهم. وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضـاً فإنهم يـأمنون لائمتـه. فإنـه في هذه الحـال عاذر لهم فيـما يجري عليهم من الأحكـام فيما لم يـأمر الشرع بـإقامتـه فيهم. لأنهم إذا كانـوا محبوسـين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس، وعذرهم بما يعذر به المحبوس. وإذا بدا منهم في حقك تقصـير أو إسـاءة، أو تفـريط. فـلا تقـابلهم بـه ولا تخـاصمهم. بـل اغفـر لهم ذلـك

(1) سورة البقرة الآية ٤٥.
(2) منازل السائرين ص ٥٩.

واعـذرهم. نظراً إلى جـريان الأحكـام عليهم، وأنهم آلة. وههنـا ينفعك الفنـاء بشهـود الحقيقة عن شهود جنايتهم عليك، كما قال بعض العارفين لرجل تعدى عليه وظلمه: إن كنت ظالماً فالذي سلطك عليَّ ليس بظالم.

وههنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه؛

أحدها: المشهـد الذي ذكـره الشيخ رحمـه الله. وهو مشهـد «القَدَر» وأن مـا جرى عليه: بمشيئة الله وقضائه وقـدره. فيراه كـالتأذي بـالحر والـبرد، والمرض والألم، وهبـوب الـرياح، وانقـطاع الأمطار. فـإن الكل أوجبتـه مشيئة الله. فـما شـاء الله كـان. ووجب وجوده. وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده. وإذا شهد هذا: استراح. وعلم أنه كائن لا محالة. فما للجزع منه وجه. وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

فصل

المشهـد الثاني: مشهـد «الصَّبْر» فيشهـده ويشهد وجـوبه، وحسن عـاقبته، وجـزاء أهله، ومـا يترتب عليـه من الغبطة والسرور. ويخلصـه من ندامـة المقابلة والانتقـام. فـما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة. وعلم أنه إن لم يصبر اختياراً على هـذا ـ وهو محمود ـ صبر اضطراراً على أكبر منه. وهو مذموم.

فصل

المشهـد الثـالث: مشهـد «العَفْـو والصفـح والحلم» فـإنـه متَى شهـد ذلـك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشيً في بصيرته. فإنه «ما زادَ الله عَبداً بعَفْوٍ إلا عِزاً»[1] كما صح ذلك عن النبي ﷺ. وعلم بالتجربة والوجود. وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ.

هـذا، وفي الصفح والعفـو والحلم: من الحـلاوة والـطمـأنينـة والسكينـة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

فصل

المشهد الرابع: مشهد «الرضى» وهو فوق مشهد «العفـو والصفح» وهـذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيـام لله. فإذا كـان ما أصيب بـه

(١) رواه: مسلم في البر باب استحباب العفو والتواضع (٤/٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨). والترمذي في البر باب ما جاء في التواضع (٤/٣٧٦ ـ ٣٧٧ رقم ٢٠٢٩). قال: حديث حسن صحيح. وأحمد (٢/٣٨٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في الله، وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله. وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره. ومتى تسخط به وتشكي منه، كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته. والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قيل:

مِن أجلِكَ جعلتُ خَدِّي أَرْضاً للشامت والحَسُود حتى تَرْضَى

ومن لم يرضَ بما يصيبه في سبيل محبوبه، فلينزل عن درجة المحبة. وليتأخر فليس من ذا الشأن.

فصل

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله. وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان. فيحسن إليه كلما أساء هو إليه. ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، ومحاها من صحيفته. وأثبتها في صحيفة من أساء إليه. فينبغي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك.

وههنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهِبة الثواب. وهذا المسكين قد وهبك حَسَناته. فإن كنت من أهل الكرم فأَثِبه عليها، لتُثْبت الهبة. وتأمن رجوع الواهب فيها.

وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم. وأهل العزائم.

ويهونه عليك أيضاً: علمك بأن الجزء من جِنْس العمل. فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوت عنه. وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك. فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك. يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك. فهذا لا بد منه. وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها.

فصل

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبَرْد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته. وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى، وطلب الوصول إلى درك ثأره، وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب. وأعون على مصالحه. فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده، وخير له منه. فيكون بذلك مغبوناً. والرشيد لا يرضى بذلك. ويرى أنه من تصرفات السفيه فأين سلامة القلب من امتلائه بالغِلّ والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟.

فصل

المشهد السابع: مشهد «الأَمْن» فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك. وإذا انتقم: واقعه الخوف ولا بد. فإن ذلك يزرع العداوة. والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيراً. فكم من حقير أردى عدوه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل: أمن من تولد العداوة، أو زيادتها. ولا بد أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوه. ويكف من جزعه، بعكس الانتقام. والواقع شاهد بذلك أيضاً.

فصل

المشهد الثامن: مشهد «الجِهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله. وأمرهم بالمعروف. ونهيهم عن المنكر. وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته.

وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن. فإن أراد أن يُسَلِّم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها. فلا حق له على من آذاه. ولا شيء له قِبَله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع. فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم. ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سُكْنى مكة ـ أعزها الله ـ ولم يَرُدَّ على أحد منهم دارَه ولا ماله الذي أخذه الكفار. ولم يضمِّنهم دِيَةَ من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصدِّيق رضي الله عنه على تضمين أهل الرِّدة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم. قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم ـ «تلكَ دماءٌ وأموال ذهبَت في الله. وأجورُها على الله، ولا دِيَة لشَهيد» فأصفق الصحابة على قول عمر. ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذي في الله: حرم الله عليه الانتقام. كما قال لقمان لابنه ﴿**وأْمُرْ بالمعروف. وانْهَ عن المنكر. واصبِر على ما أصابك. إن ذلك من عَزْم الأمور**﴾[1].

فصل

المشهد التاسع: مشهد «النِّعمة» وذلك من وجوه.

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر. ولم يجعله ظالماً

---

(١) سورة لقمان الآية ١٧.

يترقب المقت والأخذ. فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين ـ ولا بد من إحداهما ـ لاختار أن يكون مظلوماً.

ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه. فإنه ما أصاب المؤمن هَمٌّ ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به من خطاياه. فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب. ومن رضي أن يلقى الله بأدوائه كلها وأسقامه، ولم يداوه في الدنيا بدواء يوجب له الشفاء: فهو مغبون سفيه. فأذى الخلق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك. فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومن كان على يديه. وانظر إلى شفقة الطبيب الذي ركبه لك، وبعثه إليك على يدي من نفعك بمضرته.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها. فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر. فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده. وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة. وأنها في الحقيقة نِعْمة. والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين[1].

ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة. وفي بعض الآثار: أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أنَّ جلودهم كانت تُقْرَض بالمقاريض، لما يرون من ثواب أهل البلاء.

هذا، وإن العبد ليشتد فرحه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض. فالعاقل يَعُدُّ هذا ذخراً ليوم الفقر والفاقة. ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً.

فصل

المشهد العاشر: مشهد «الأُسْوَة» وهو مشهد شريف لطيف جداً. فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسُل الله، وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه. فإنهم

---

(١) في هامش أحد الأصول: «حَبَس السلطان رجلاً. فكتب إليه بعض إخوانه الصالحين: أشكر الله. ثم قيِّد هو ومجوسي مبطون بقيد واحد. فكان المجوسي يقوم بالليل لقضاء الحاجة مرات. وكلما ذهب ذهب معه الرجل. فيقف على رأسه حتى يقضي حاجته. فكتب إليه صاحبه: إشكر الله. فقال: على ماذا أشكر الله. وأي بلاء فوق ما أنا فيه؟. فكتب إليه: لو جعل الزنار الذي في وسطه في وسطك كما جعل القيد في رجلك ما كنت تصنع؟ فاشكر الله على سلامة الدين» ا. هـ.
قلتُ: ومن الحكايات قول سعدى الشيرازي في «روضة الورد»: «عُمري ما شكوتُ من جور الزمان ولا عبستُ في وجه الفلك مدة الدوران. إلا في وقت واحد. اشتدّ فيه من الحفا ألمي. ولم أملك القدرة على شراء حذاء أستر به قدمي فدخلتُ مسجد الكوفة وأنا مضطرب القلب وإذا برجُل مقطوع الرجل فوعظتني حاله ورأيتُ أن الحفا بالنسبة إليه نعمة يجب عليَّ لله شكرها» (ص ١٤٨).

أشد الخلق امتحاناً بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور. ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم. وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يُؤذَه مَنْ قبله. وقد قال له وَرَقة بن نوفل «لَتُكَذَّبن. ولَتُخْرَجَنَّ. وَلَتُؤْذَيَنَّ»[1] وقال له ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» وهذا مستمر في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ.

أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلق الله، وخواص عباده: الأمثل فالأمثل؟.

ومن أحب معرفة ذلك فليقف على مِحَنِ العلماء، وأذى الجهال لهم. وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتاباً سماه «محن العلماء».

فصل

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد» وهو أجل المشاهد وأرفعها. فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله. والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والإنس به، واطمأن إليه. وسكن إليه. واشتاق إلى لقائه، واتخذه ولياً دون من سواه، بحيث فَوَّض إليه أموره كلها. ورضي به وبأقضيته. وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه، عن كل ما سواه: فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له ألبتة. فضلاً عن أن يشغل قلبه وفكره وسِرَّه بتطلب الانتقام والمقابلة. فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه. فهو قلب جائع غير شبعان. فإذا رأى أيَّ طعام رآه هَفَتْ إليه نوازعه. وانبعثت إليه دواعيه. وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها: فإنه لا يلتفت إلى ما دونها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

فصل

وأما قوله «أن يستفيد بمعرفة أقدار الناس، وجريان الأحكام عليهم: محبتهم له، ونجاتهم به».

فلأنه إذا عاملهم بهذه المعاملة: من إقامة أعذارهم، والعفو عنهم، وترك مقابلتهم: استوت كراهتهم ومحبتهم له. وكان ذلك سبباً لنجاتهم الأخروية أيضاً. إذ

---

(١) رواه ابن إسحاق وعنه ابن هشام (٢٣٨/١) وروى نحوه البخاري في أول صحيحه باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣/١) ومسلم في الإيمان باب بدء الوحي (١٣٩/١ ـ ١٤٢ رقم ١٦٠) وأحمد (٢٣٢/٦) منهم عن عائشة رضي الله عنها. وانظر دلائل النبوة لأبي نعيم ٦٨ ـ ٦٩ ودلائل النبوة للبيهقي ٣٩٣/١ ـ ٣٩٥، وأعلام النبوة للماوردي ٣٠٨ ـ ٣١١.